

دور الوجودية في تشكيل الرؤية الشعرية لعبد الوهاب البياتي

The Role of Existentialism in Shaping Abdul Wahab Al-Bayati's Poetic Vision

بن حفاف رحمة

Ben haffaf Rahma

جامعة عمار تلجي (الأغواط/الجزائر)، مخبر اللغة العربية وآدابها، r.benhaffaf@lagh-univ.dz

تاريخ النشر: 2025/11/30

تاريخ القبول: 2025/10/11

تاريخ الاستلام: 2025/07/05

الملخص: تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على المؤثرات الفلسفية في شعر عبد الوهاب البياتي مع التركيز على النزعة الوجودية التي وسمت الأدب الغربي والعربي المعاصر بميسمها، هذه الفلسفة التي لامست الجانب الوجداني للإنسان، واحتقت به بوصفه كائنا حرا، مسؤولا عن مصيره، فالإنسان المعاصر واجهته أحداثا حاول استيعابها ومواجهتها خاصة بعد الحربين العالميتين جعلته يطرح أسئلة جوهرية عن معنى الوجود، وجدوى الحياة، وعيشة الواقع، من هذا المنطلق، وجد كثير من الشعراء في الفكر الوجودي أرضا خصبة لتأملاتهم، فانعكست هذه الأسئلة في قصائد تنبض بالقلق والاعتراب، ويعد عبد الوهاب البياتي من أبرز الشعراء العرب المعاصرين الذين تجلت في نصوصهم هذه الرؤية، حيث بثّ فيها أفكارا وجودية تعبر عن اللاجوى والعبث لتعكس صورة الواقع المهترئ.

كلمات مفتاحية: الوجودية، البياتي، القلق، العدم، الرؤيا.

Abstract

This study aims to shed light on the philosophical influences in the poetry of Abdul Wahab Al-Bayati, with a particular focus on the existential crisis that has shaped Western and contemporary Arabic literature. Existential philosophy emphasizes the human as a free being who is responsible for his destiny. In the aftermath of the two World Wars, modern people faced many experiences that prompted them to ask fundamental questions about the meaning of existence, the purpose of life, and the randomness of reality. Consequently, many poets found fertile ground in existential thought which echoed their own feelings of anxiety and alienation. Abdul Wahab Al-Bayati is considered as one of the most prominent contemporary Arab poets whose works reflect these Existential thoughts, especially the absurdity and randomness that characterize the fragmented modern reality.

Keywords: Existentialism, Al-Bayati, Anxiety, Nothingness, Vision.

المؤلف المرسل: بن حفاف رحمة، الإيميل: r.benhaffaf@lagh-univ.dz

1. مقدمة:

تُعَدُّ التيارات الفكرية والفلسفية من أهم الروافد التي أغنت الإبداع الأدبي، إذ وجد فيها الكتاب والشعراء مجالاً خصباً لاستلهاهم الرؤى وبناء التصورات الجمالية والفكرية. وبعد الحرب العالمية الثانية، تزايد حضور الفلسفات التي جعلت من الإنسان محوراً لها، مؤكدة حريته وفاعليته في مواجهة قوى السيطرة التي تسلبه إرادته، وفي مقدّمتها الفلسفة الوجودية التي رفعت شعار الحرية وكرّست قيمة الفرد.

وقد تركت هذه الاتجاهات الفكرية أثراً عميقاً في الأدب العربي الحديث، حيث وجد فيها الشعراء العرب ما يُعبّر عن أزماتهم وقلقهم الوجودي، خاصة في ظلّ الخيبات المتتالية التي عاشها الإنسان العربي. ومن بين هؤلاء يبرز الشاعر عبد الوهاب البياتي الذي شكّلت الوجودية إحدى الركائز الأساسية لتجربته الشعرية، إذ انعكست في نصوصه بما حملته من رؤى وجودية تتقاطع مع معاناته الذاتية وصدماته مع الواقع الجمعي.

أهمية البحث:

يمثل شعر عبد الوهاب البياتي تجربة فريدة حملت في طياتها مرحلة مهمة من تاريخ الإنسان العربي عموماً، والعراقي خصوصاً، الذي سُلِبَت حريته وتعرض لضغوط قاسية فرضتها القوى المسيطرة على المشهد السياسي آنذاك. وقد شكّلت هذه التجربة الشعرية مرآة عاكسة لمعاناة الفرد العربي ولأزماته الوجودية، كما جسّدت في الوقت نفسه أبعاد الفلسفة الوجودية بما تتطوي عليه من قلق وتمرد وتوق إلى الحرية. ومن هنا تتبع أهمية هذا البحث في الكشف عن مدى حضور الفكر الوجودي في شعر البياتي، وبيان كيف عبّر عن خلاله عن الواقع العربي المأزوم، في صورة تجعل تجربته الشعرية ذات صلة ممتدة بحاضرنا الراهن.

إشكالية البحث:

ينطلق هذا البحث من إشكالية عامة مفادها: كيف تجلّت الفلسفة الوجودية في شعر عبد الوهاب البياتي، وما مدى حضورها في تشكيل تجربته الشعرية؟

1. ما أبرز المبادئ الوجودية التي انعكست في تجربة البياتي الشعرية؟

2. كيف عبّر البياتي عن أزماته الإنسان العربي ومعاناته الوجودية؟

منهجية البحث:

للإجابة عن هذه التساؤلات، اعتمدنا في هذا البحث مقاربة نقدية تستند إلى المنهج التحليلي، من خلال قراءة نصوص مختارة من دواوين عبد الوهاب البياتي التي تجلّى فيها البعد الوجودي بوضوح. وقد ركّز التحليل على البنية الفكرية والجمالية للنصوص، واستنطاق الرموز والدلالات التي تُبرز حضور المبادئ الوجودية في تجربته

الشعرية. ويعود اختيار هذا المنهج إلى كونه الأنسب لتفكيك النصوص الأدبية والكشف عن مستوياتها الدلالية والفكرية والجمالية في آن واحد.

فرضيات البحث:

1. تشكل الفلسفة الوجودية أحد المرتكزات الفكرية الأساسية في تجربة عبد الوهاب البياتي الشعرية.
2. من المرجح أن حضور المبادئ الوجودية في شعر البياتي كان انعكاساً لمعاناته الذاتية وتجربته مع الواقع السياسي والاجتماعي.
3. يُحتمل أن توظيف البياتي للأفكار الوجودية منح نصوصه بعداً إنسانياً عاماً يتجاوز حدود التجربة الفردية إلى قضايا الإنسان العربي.

(2) الفلسفة الوجودية :

شهد العالم، عقب الحربين العالميتين، تحولات فكرية وفلسفية كبرى هزّت البنى التقليدية للوعي الإنساني، وأعادت صياغة كثير من المفاهيم المتعلقة بالحرية والوجود والمعنى. فقد ولدت المآسي التي خلفتها الحروب شعوراً عميقاً بالاغتراب والقلق، ودفعَت المفكرين والفلاسفة إلى البحث في صلب الكينونة الإنسانية والتساؤل عن جدوى الوجود وغاياته. وفي هذا السياق برزت الفلسفة الوجودية بوصفها إحدى أبرز التيارات الفكرية المعاصرة التي منحت الإنسان مكانة جوهرية في الكشف عن سر وجوده، كما فتحت أمام الشاعر المعاصر آفاقاً جديدة للتعبير عن همومه، وعكست تطلعات الشعوب المقهورة. وقد وجد عبد الوهاب البياتي في الوجودية ملاذاً يعبر من خلاله عن تجربته الشعرية، إذ حملت قصائده صدى غربته واغترابه، وكشفت عن شعوره الحاد بالقلق واللاجدوى من واقع مثقل بالتناقضات.

الوجودية *Existentialism* هي فلسفة تنتمي في السياق العام للفكر الغربي، غير أن معالمها تبلورت بشكل واضح مع الفيلسوف الفرنسي "جون بول سارتر" «Jean Paul Sartre» (1905-1980)، وتتمحور الوجودية حول الإنسان بوصفه مركزاً للوجود، منه تنطلق الدائرة الوجودية وإليه تعود، وهي فلسفة تنشد الذاتية والحرية والمسؤولية، وما يترتب عنها من معاناة القلق، والاغتراب، والشعور باللاجدوى.

تُفهم الوجودية في معناها العام على أنها إبراز لقيمة الوجود الفردي، غير أن معناها الخاص، كما عرضه جان بول سارتر في كتابه الوجود والعدم، يقوم على مبدأ أساسي مفاده أن الوجود يسبق الماهية، وأن الإنسان يمتلك مطلق الحرية في الاختيار، فيصوغ ذاته بنفسه، ويملاً وجوده بالطريقة التي يراها ملائمة. (جميل، 1982، صفحة 565)

يرى البعض أن الفلسفة الوجودية من أكثر الفلسفات "ملاءمة لروح العصر" (محمود، 1996، صفحة 3)، وقد لاقت رواجاً واسعاً في الأوساط الثقافية خلال القرن العشرين، إذ يُعزى ذلك إلى تماس مبادئها مع الشعور الإنساني، فهي فلسفة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بوجود الإنسان وتساؤلاته حول جدوى هذا الوجود في عالم طغت عليه الفوضى واللامعقول، لاسيما في أعقاب الحربين العالميتين، اللتين كشفتنا زيف الشعارات الكبرى ولامبالاة القوى المتحكمة في المشهد العالمي، يقول عبد الرحمان بدوي: "الوجودية أصدق تعبير عن حالة القلق العام الذي تملك العالم الشعور الحاد به بعد الحرب العالمية الأولى والثانية ولقد كان لهذين الحادثتين أثر بالغ في إشعار الإنسانية بالمعاني الكبرى التي تؤلف نسيج وجودها، وفي وضعها بصورة كلية أمام أكبر مصدر من مصادر قلقها، وأعني به الفناء الكامل الشامل الذي ينتظم الشعوب بأسرها" (الرحمان، 1980، صفحة 19)، وإن تلاشي القيم الإنسانية، وتراجع قيمة الإنسان بوصفه محورا للكون، جعله يتساءل عن جدوى وجوده ومعنى حياته، وهي أسئلة وجودية عميقة لامست تفكير المثقفين والإنسان المعاصر عموماً، وفتحت أمامه أبواب القلق والصراع مع الذات والواقع، وقد دفعه هذا الوعي القلق إلى التكرار لكل القيم التي رأى فيها قيماً يقوض حريته، سواء أكانت دينية أم ثقافية أم اجتماعية، لتصبح الحرية حجر الأساس في بناء الذات، ومنحت الإنسان كامل الحرية في تحديد ذاته ومستقبله ومصيره، والإنسان لا يحدد مصيره فحسب، بل إن خياراته تمثل نموذجاً يحتذى به، "وبهذا تكون مسؤوليتنا أكبر مما نظن لأن الصورة التي سنكون عليها ليست شيئاً يخصنا نحن وحدنا، ولكنها شيء يخص الناس جميعاً" (سارتر، 1964، صفحة 17)، إذ تسهم في رسم ملامح السلوك الإنساني العام، من هذا المنطلق، يرى سارتر أن الفرد حين يتحمل المسؤولية الكاملة عن اختياراته، فإنه يضيف عليها طابعاً كونياً كأنها تحدد سلوكيات البشرية جمعاء!

تتخذ الوجودية من الكوجيطو الديكارتي "أنا أفكر إذن أنا موجود" (سارتر، 1964، صفحة 44)، دعامة تتشد الذاتية والحرية في التفكير، والذات، وفقاً لهذا التصور، هي الحقيقة الوحيدة اليقينية في هذا العالم، ومن ثم، فهي المخولة وحدها بتحديد ماهيتها واختيار مصيرها. ليعاد صياغة الكوجيطو الديكارتي في قالب جديد "أنا حر فأنا أقرر، إذن أنا مسؤول"، هكذا، بلورت الوجودية رؤيتها حول حرية الإنسان في اختيار مستقبله، وتحمله الكامل لمسؤولية قراراته وتبعاتها.

تتركز الفلسفة الوجودية على مبدأ أساسي هو أن "الوجود يسبق الماهية" (سارتر، 1964، صفحة 14)، أي أن الإنسان يوجد أولاً، ثم يحدد ماهيته لاحقاً من خلال أفعاله واختياراته، فالوجود هو تحقق الكائن بشكل فعلي وملموس في الواقع، بمعنى أن له حيزاً مكانياً في العالم، بينما تشير الماهية إلى مجموع الخصائص والمميزات التي تُعرّف هذا الكائن، لأن الإنسان هو المسؤول الأول والأخير في تحديد ماهيته وكيونته وموقعه في العالم، فهو يوجد

أولاً ثم يحدد ويتخذ قراراته بنفسه حول مستقبله، فهو الذي ينتج الماهية ويملك الحق في تحديد مصيره، دون أن تخضع خياراته لسلطة خارجية، سواء كانت دينية أو سياسية أو اجتماعية تملّي عليه الصواب والخطأ. يشكّل الوجود الإنساني الموضوع الجوهري في الفلسفة الوجودية، إذ يعد الإنسان البؤرة المحورية التي تنصب عليها اهتمامات الفلاسفة الوجوديين، وقد عبروا عن هذا الموجود بتعابير مختلفة من أبرزها *Dasein* (الموجود - هناك)، كما استخدمه الفيلسوف الألماني "مارتن هايدغر" « *Martin Heidegger* » (1889-1976) للدلالة على الكائن البشري بوصفه كائناً واعياً لوجوده (محمود، 1996، صفحة 7)، حيث "صار لفظ "دازين" بديلاً نهائياً من لفظة "إنسان"، إن الدازين هو نمط كينونة الكائن الذي هو كل منا نحن انفسنا في كل مرة، لكنّ هذا الدازين ليس معطى أو ماهية جامدة، بل هو الكينونة التي علينا أن نكونها" (مارتن، 2012، صفحة 778، 779)، وهذا يعني أنّ الدازين ليس كياناً ثابتاً أو ماهية جاهزة، بل هو وجود يتشكّل ويتكوّن باستمرار من خلال الخبرات والتجارب التي يخوضها الإنسان، ومن خلال اختياراته التي تحدّد مسار كينونته، وتسعى الوجودية في هذا الإطار إلى تفسير أحوال الإنسان وما يعتريه من مشاعر القلق، والمسؤولية، والاغتراب، وشعور بالعدم واللاجدوى في عالم يفتقر إلى المعنى المطلق. وقد انعكست هذه المفاهيم بوضوح في الأدب العالمي والعربي، وكان عبد الوهاب البياتي من أبرز من جسّدتها شعرياً.

تذهب الفلسفة الوجودية إلى أن الوجود يسبق الماهية، وأن الإنسان يمتلك حرية مطلقة في تشكيل ماهيته، فإذا سبق الوجود الماهية، وإذا لم تكن هناك قوى تبسط سيطرتها على الوجود، وتحدد مسبقاً مسار الموجود، فإن الإنسان يكون مسؤولاً بالكامل عن ذاته، وعن كل ما يصدر عنه من أفعال وقرارات في حياته، وبناء على ذلك، فإن حقيقة الإنسان تكمن في كونه نتاجاً لاختياراته الحرة، تلك التي يحدد من خلالها مكانته في العالم وموقعه من الوجود، فالماهية وفقاً لهذا التصور، لا تُمنح مسبقاً، بل تتشكل تدريجياً من مجموع الأفعال التي ينجزها الفرد بحرية تامة. وينشأ الشعور بالقلق، في المنظور الوجودي، عندما يجبر الإنسان إلى تحمّل مسؤولية أفعاله ونتائج قراراته، ويوضحه سارتر بقوله "القلق الذي نعيشه هنا ليس هو القلق الذي يؤدي إلى الاستكانة واللافعل، ولكنه القلق الصافي البسيط من النوع الذي يعرفه كل من تحمل مسؤولية من المسؤوليات في يوم من الأيام" (سارتر، 1964، صفحة 22)، ويتفاهم هذا القلق عند تفكير الإنسان بالمستقبل، لما يعتريه من غموض ولا يقين، إذ تتزاحم في ذهن الإنسان علامات استفهام حول مصيره، وما ينتظره في نهاية المطاف، فالوجودية هي تساؤل دائم عن سبب الوجود وجدواه. لقد تركت الفلسفة الوجودية أثراً بالغاً في الفكر العربي الحديث، لا سيما في أوساط المثقفين، خاصة بعد جهود عبد الرحمان بدوي في ترجمة كتب أبرز أعلام الوجودية وعلى رأسهم سارتر، خاصة ترجمته لكتاب " الوجود والعدم"،

كما أسهم بدوي في ترسيخ هذا التيار الفلسفي من خلال مؤلفاته التي عالج فيها الوجود من منظور إنساني وفلسفي، من أبرزها: "الإنسانية والوجودية في الفكر العربي"، "الزمان الوجودي"، "دراسات في الفلسفة الوجودية".

إن الفلسفة الوجودية بما تحمله من توجهات فكرية انبثقت من مجتمع غربي له أطره الخاصة، يتسم بتجربة تاريخية معقدة من الهيمنة الدينية، حيث فرضت الكنيسة الكاثوليكية لقرون وصايتها على الفكر والعقيدة، مما أدى إلى حالة من التمرد على السلطة الدينية والبحث عن دين جديد يفتح له أبواب سكينة الروح والطمأنينة، فكانت الفلسفة ملاذه ومنقذه من هذا التعسف الديني، غير أن مكونات المجتمع الغربي تختلف جذريا عن مكونات المجتمع الإسلامي، التي تستمد قوتها وروحها من خالقها، إذ تسلّم بخضوعها لا لخلفاء الله على الأرض وإنما لخالق رحيم عليم يدبر أمرهم، فهو أرحم بهم من أمهاتهم، وأقرب إليهم من حبل الوريد.

(3) الوجودية في الشعر العربي الحديث:

تعد الوجودية شكلا من أشكال التمرد على الواقع، إذ تسعى إلى تقويض كل قيد فرضته الأطر الاجتماعية أو السياسية أو الدينية على الإنسان، فهي تُعلي من شأن الكينونة الفردية، وتمنح الإنسان حرية مطلقة في رسم مساره وتحديد مصيره، ومن هذا المنطلق وجد كثير من الشعراء في هذه الفلسفة متنفسا فكريا وجماليا، يتيح لهم الانعتاق من قيود التقاليد الشكلية والموضوعاتية، والانفتاح على آفاق رحبة من التعبير الفني. والشعراء في أمس الحاجة إلى هذه المساحة من الحرية للتجديد، تتيج لهم التعبير عن مستجدات عصرهم بالألفاظ والصور والمعاني والأوزان التي تتوافق مع دقاتهم الشعورية، يقول عبد الرحمان بدوي: "الوجودية أقرب الفلسفات إلى الشعر والشعر أقرب الفنون إلى الوجودية" (بدوي، 1947، صفحة 107)، الوجودية تمنح الشاعر حرية مطلقة، فهو لا يعبر عن الوجود فحسب بل يعيد خلقه من خلال الكلمة ويعبر أيما تعبير عنه، فالشاعر فيلسوف بطريقة رؤيته للأشياء، يشعر بها ويحقق وجودها، إذ يمنحها نفسا جديدا في قصائده.

الشعراء أكثر فئة إرهافا للحس واستشراق للمستقبل، يمتلكون قدرة خاصة على قراءة الأحداث والوقائع من زوايا غير مألوفة، يجسدونها في قصائدهم، ساعين من خلالها إلى مواكبة التحولات ورسم رؤى للعالم تتبثق من تجربتهم الذاتية. وفي هذا السياق تبرز الفلسفة الوجودية "أقوى الاتجاهات الفكرية المعاصرة في الأدب، ففي طبيعة الاتجاه الوجودي ما يجعله مركبا سهلا، ذلك لأن الفن كان دائما أقدر على تحسس الجرح الداخلي في الفرد، ورؤيته جرحا يشكو منه المجتمع" (إحسان، 1962، صفحة 12)، وجد فيه كثير من شعراء العصر الحديث صدى لتجاربههم، ومتنفسا للتعبير عن قلقهم الوجودي، ومن أبرز هؤلاء الشعراء: صلاح عبد الصبور، السياب، نازك الملائكة، وشاعرنا عبد الوهاب البياتي الذي ترك أثرا بالغا في الساحة الأدبية، لا لغزارة إنتاجه فحسب، بل تشربه لثقافات

عديدة مختلفة كل لها طابعا خاصا، وأساطير متميزة تقنع من خلالها للتعبير عن خيبات وانتكاسات العالم العربي، لقد كانت الوجودية، بما تحمله من معانٍ كالقلق، والندم، والمسؤولية، واللاجدوى، ملاذا لهؤلاء الشعراء، يعكسون من خلالها مرارة الواقع، وهموم الشعوب العربية التي أثقلت كاهلهم، وأثارت أسئلتهم الوجودية الكبرى.

4) ملامح الوجودية في شعر عبد الوهاب البياتي:

تبرز ملامح الفلسفة الوجودية في شعر البياتي بشكل لافت، إذ تكاد تشكل خلفية فكرية وأسلوبية حاضرة في معظم قصائده، وقد عبّر البياتي عن هذه النزعة الوجودية بأساليب متنوعة، لعل أبرزها تقمصه لشخصيات رمزية من التاريخ، توحى بمضامين فلسفية عميقة. من أبرز هذه الشخصيات "عمر الخيام"، الشاعر والفيلسوف الذي تنسب إليه رباعيات تعد من أعمق ما قيل في تأملات الوجود وسر الحياة، يقول الخيام:

نهاية الدنيا فناء فعش فيها طليقا واعتبرها عدم (أحمد، 2000، صفحة 56)

لقد رأى البياتي في الخيام رمزا للتمرد على القيم السائدة، وللبحث القلق عن الحرية، والمعنى، والحقيقة، بعيدا عن قيود الفكر الديني أو الاجتماعي الجامد، بهذا التقمص الرمزي، لايعيد البياتي إحياء الشخصيات التراثية بقدر ما يجعلها ناطقة بأسئلته هو، وبهموم عصره، ورؤاه الشعرية التي تتقاطع بعمق مع جوهر الفلسفة الوجودية.

قدّم البياتي ديوانه "الذي يأتي ولا يأتي" بتصدير يقول فيه: "سيرة ذاتية لحياة عمر الخيام الباطنية الذي عاش في كل العصور منتظرا الذي يأتي ولا يأتي" (البياتي، الذي يأتي ولا يأتي، 1985، صفحة 3) في هذه الكلمات القليلة تتجلى رؤيته لفكر الخيام، لا باعتباره شاعرا فحسب، بل رمزا وجوديا يتجاوز الزمان والمكان، فشخصية الخيام، كما يرسمها البياتي، هي كينونة قلقة تسكن التجربة الإنسانية جمعاء، وجسد ذلك الانتظار الأبدي لما لا يدرك، إنه حضور دائم في أعماق الوعي البشري، يولد مع الإنسان، ويحيا معه في كل لحظة، وفي كل ركن من أركان الوجود.

1.4) اللاجدوى والعدم :

تتسائل الفلسفة الوجودية عن جدوى الحياة في ظل ما عاناه الإنسان عبر العصور من قهر واستبداد وهدر للحقوق والحريات. فالإنسان الوجودي يعيش مغتربا، مسلوب الإرادة، يتخبط في قبضة الظالمين، يبحث عبثا عن ذاته وسط عالم لا ينفك عن سحقه. وفي هذا السياق، جاءت قصائد الشاعر المعاصر تضج بالصراع الداخلي، تصرخ في وجه العدم، وتتنبش في ركام الواقع تبحث عن بصيص معنى يعيد للحياة بريقها، وقد جسد البياتي هذا القلق الوجودي في شعره، متأثرا بما عايشه من محن في وطنه، وما واجهه من مرارة الاغتراب في منافيه المتعددة، حيث ظل في رحلة مضنية للبحث عن الذات، وعن الحرية، وعن معنى الوجود. أراد أن يمزق أقمطة القهر، ويولد من جديد، إلا أن

قسوة الواقع كانت تصدمه، ولامعقولية العالم كثيرا ما جمّدت في لحظة انكسار وجودي عميق، يقول في قصيدته "الطفولة":

ولدت في جحيم نيسابور

قتلت نفسي مرتين، ضاع مني الخيط والعصفور

...

كلّمت نجمة الصباح، قلت: يا صديقه

أتزهر الحديقة؟

وتولد الحقيقة؟

من هذه الاكذوبة البقاء (البياتي، الذي يأتي ولا يأتي، 1985، صفحة 10)

مع مستهل القصيدة، يستشعر القارئ وطأة اللاجدوى وسوداوية الحياة التي تنذر بعدمية شاملة، حيث تغدو الولادة محنة كبرى وقدرا محتوما، بوصفها أولى لحظات السقوط في الجحيم. فمولده في "نيسابور" بدا أشبه بالبداية الأولى لمنفاه الوجودي، لا يملك إزاءه إرادة أو خيارا، وقد عبّر البياتي عن هذه الرؤية في إحدى مقابلاته التلفزيونية قائلا: " منذ اليوم الأول الذي ولدت فيه وأطلقت صرختي الأولى شعرت بالحنين للعودة للأبدي، وبدأت أشعر كأني في منفى، كنت أحن للعودة من حيث جنّت، كانت هذه صدمتي الأولى" (البياتي، 1995)، هذه الصدمة الوجودية دفعته لاحقا لاتخاذ قرار قتل نفسه - موت نفسي لا مادي - ليس مرة واحدة، بل مرتين، فإن أخطأت الأولى، كانت الثانية كفيلة بإتمام المهمة. لم يكن هذا القرار تعبيراً عن استسلام، بل محاولة للفرار من عبث الواقع والانبعاث من رماد التجربة. الموت في هذا السياق، لا يراد به الفناء، بل شكل من أشكال الخلاص، والانفلات من قبضة جحيم الوجود نحو ولادة جديدة أرادها الشاعر بإرادته هو، لا بإرادة فرضت عليه.

إن ضياع الخيط والعصفور هو ضياع للحقيقة، ولأمل كذلك، أي استحالة قطعية لأي بصيص من النور قد يأخذ بيدنا إلى سر الوجود، ومن ثم، لن يكون بمقدوره الوصول إلى الحقيقة التي سأل عنها نجمة الصباح، ونجمة الصباح بوصفها رمزا للإلهة "عشتار"، منجبة الحياة، لم تستطع أن تمنحه الجواب الذي يبحث عنه.

ويصور البياتي البشر بوصفهم كائنات فانية، يحاولون مجابهة الحياة ومصارعة الوجود في مدينة تتعدم فيها سبل العيش، مدينة يصفها بأنها من حديد وحجارة، خالية من كل مقومات الدفئ والروابط الاجتماعية، مدينة قاسية، منعومة الرحمة، مرهقة، الإنسان فيها ميت حي، تعكس عبثية الوجود وتدفع بالبشر نحو الفناء، فالعيش فيها يتطلب تمزيق القماط، وتسلق الأسوار، ونصب الشراك، إذ لا يثبت الإنسان كينونته ولا يحدد مصيره إلا عبر اتخاذ قراراته

بمحض إرادته ف"الإنسان ليس سوى ما يصنعه هو بنفسه" (سارتر، 1964، صفحة 14)، يقول البياتي في نفس القصيدة:

البشر القانون في مدينة الحديد والأحجار

تسلفوا الأسوار

ونصبوا الشراك (البياتي، 1985، صفحة 11)

وتتجسد عدمية الحياة، في نظر للبياتي، في المدينة التي لطالما مثلت له رمزا للبؤس والتحجر والظلم والقهر، وقد سعى جاهدا إلى البحث عن مدينة فاضلة، يتساوى فيها الناس، وتتحقق فيها العدالة و يعمّ بها السلام، يقول البياتي:

يا عندليب العاشق الأعمى، ويا خزائن الأسرار

أبحرت السفينة

تبحث في الأصقاع عن مدينة

لم يقف الشحاذ في أبوابها يوما ولم يسند على رصيفها جبينه (البياتي، 1985، صفحة 12)

وتنتهي القصيدة بصور بشعة للحياة، تدل على عبثيتها وفظاعتها، حيث يستخدم البياتي تراكيب لغوية تتضح بالقبح واليأس، وتعكس بُؤس المدينة وشدة قسوتها (الجثث المبقورة، الشارع الملعون، النفاية الغريقة) يقول:

الجثث المبقورة البطون

تسد هذا الشارع الملعون

متى؟ متى أيتها الشمطاء؟

ستمطر السماء!

وتولد الحقيقة؟

من هذه النفاية الغريقة ! (البياتي، 1985، صفحة 12)

يتذبذب البياتي في نهاية القصيدة بين التساؤل والتعجب، في إشارة إلى استحالة الوصول إلى الجواب النهائي عن الحقيقة، فالتساؤل لا يقوده إلى إجابة، بل يفتح باب الدهشة والتعجب من تكرار ذات السؤال. يصرخ في وجه الشمطاء "رمز الحياة" منهكا من الجحيم الذي ولد فيه، متسائلا: متى ينتهي هذا العذاب؟ متى يرى الحياة عادلة؟ ومتى يولد من جديد؟

تتجلى مظاهر العدمية أيضا في تصوير البياتي للنهاية البشعة للنوار عبر أصقاع العالم على مر التاريخ، ومن بينهم فيديريكو غارثيا لوركا الشاعر والمسرحي الإسباني الذي أعدم بالرصاص، يقول البياتي:

مناضلا يموت في مدريد

مضرجا بدمه وحيد

تحت قرون النور أو في ساحة الإعدام

الدم في كل مكان ساخنا يسيل

مرويا هامة هذا الجبل الثقيل

رأيته يمتد من جبل إلى جبل كخيوط النور

في عالم الفوضى وفي تزامم الأضداد والعصور

الدم في كل مكان ساخنا يسيل (البياتي، 1985، صفحة 54)

تعكس هذه الأبيات لامعقولية الحياة في نظر البياتي، وفي نظر جميع النوار حول العالم، حيث تتجسد الفوضى في سرقة الأدوار من محترفي السياسة والكذب، إذ يكرر الشاعر عبارة "الدم في كل مكان ساخنا يسيل" للدلالة على انتشار الموت في كل أصقاع الأرض، واستمرار هذا الدم والاضطهاد كأنه نهر لا ينضب يتدفق بلا توقف في كل مكان وفي كل زمان، أثقلت البياتي خيبات وانكسارات جيله، وما تلاه من أجيال من بعده، حمل خيط النور لينير به الطريق في عالم الفوضى، بين تزامم الأضداد، وتركيب "تزامم الأضداد" يمثل ذروة اختلال التوازن وضبابية الرؤية، التي يعود سببها إلى جشع و وحشية القوى السياسية التي تحكم العالم.

تتجسد عدمية الوجود في نظر البياتي من خلال صراع الإنسان مع الحياة، وسعيه المستميت لإثبات ذاته عبر تحدي الصعاب ونحت طريق وعر المسالك بجهده الفردي. وقد اصطدم البياتي، كما فعل جيله، بخيبات الواقع العربي، وبخذلان القوى السياسية التي تخلت عن القضايا الجوهرية، التي لم يساوره الشك يوما ما في عدالة الدفاع عنها، ولا في حتمية الالتزام بها، يقول البياتي في قصيدة "العودة من بابل":

معجزة الإنسان أن يموت واقفا، وعيناه إلى النجوم

وأنفه مرفوع

إن مات- أو أودت به حرائق الأعداء

وأن يضيء الليل وهو يتلقى ضربات القدر الغشوم

وأن يكون سيد المصير (البياتي، 1985، صفحة 32)

يقرر البياتي في هذا المقطع، أن للإنسان كامل الحرية في تحديد مصيره، رغم ما قد يصيبه في قطار الحياة من ظلم وقهر وتككيل، ومن خلال عنوان القصيدة " العودة من بابل " الذي يشكل عتبة دلالية غنية يتيح لنا سبر أغوار القصيدة. العنوان جملة اسمية مكونة من مبتدأ وخبر، حيث جاء الخبر في صورة شبه جملة تبدأ بحرف الجر "من"، وتتصل باسم مجرور "بابل"، والمثير هنا أن البياتي لم يقل "العودة إلى بابل" بل "من بابل" فلماذا استخدم البياتي حرف الجر "من" بدل "إلى"؟ ربما يريد البياتي أن يشير إلى هروب أو خلاص من مكان لم يعد صالحاً للحياة، استخدام "من" بدل "إلى" قد يكون توظيفاً رمزياً يعكس الخراب الذي عمّ مدينة "بابل" رمز العراق، بل رمز الوطن العربي بأسره، هذا الوطن المسلوب الذي يستحيل العيش في كنفه بكرامة. إن العودة من بابل، بهذا المعنى، ليست عودة إلى الوطن، بل فراراً منه، فراراً من الانهيار والفوضى والخذلان، وهكذا، يعكس العنوان والقصيدة لا جدوى الحياة في واقع تتزاحم فيه الفوضى والظلام، وتتكشف فيه عبثية الوجود، يقول :

بابل تحت خيمة الليل إلى الأبد

تعوي على أطلالها الذئاب

ويمأ التراب

عيونها الفارغة الحزينة

بابل تحت قدم الزمان

...

بابل تحت قبة الليل بلا زاد ولا معاد

بلا حنوط، ترتدي عباءة الرماد (البياتي، 1985، صفحة 33)

وظف البياتي في هذين المقطعين تراكييب لغوية تحمل دلالات العدمية وانعدام الحياة، تعكس خراب بابل (رمز العراق)، وما حلّ بها من دمار و ظلام، من أبرز هذه التراكييب " تحت خيمة الليل "، "عيونها الفارغة الحزينة"، "تحت قدم الزمان"، "تحت قبة الليل"، "عباءة الرماد"، كلها صور تعمق الإحساس بالقهر، والظلم، والطغيان، يصور اجتياح الظلام والخراب لسكان بابل، كأن أنفاسهم تُكتم تحت وطأة قدر محتوم سطر لهم دور اختيار، تحديدا في تركيب "عيونها الفارغة الحزينة" إذ يتجلى الوجد، والعجز والانكسار، عيون لا ترى إلا الفراغ، ولا تحمل سوى الحزن العميق. أما (عباءة الرماد) فهي صورة رمزية قوية تعبر عن الهشاشة والانكشاف، فبابل ترتدي عباءة لا تقيها لا من حر الصيف ولا من برد الشتاء، لا تحميها لا من الأعداء ولا من خونة الدار .

2.4) الاغتراب والقلق الوجودي:

إن ما يعتري الإنسان من قلق، في نظر الوجوديين، يتولد عن شعوره بالمسؤولية تجاه إختياراته وحرية قراراته، كما ينشأ عن تساؤلاته المستمرة حول الوجود، وسبب وجوده في هذا العالم، وحتمية الموت. كلها هواجس تؤرق الإنسان الوجودي، إذ تشكل ظلاً ثقيلاً يخيم على حياته، إلا أن نظرة البياتي إلى هذا القلق جاءت أكثر عمقا واتساعا، امتزج عنده ببعد آخر وهو اليأس من الحياة، ففي قصيدة "البحث عن الكلمة المفقودة" يصور البياتي رحلته البائسة بحثاً عن الكلمة الضائعة، عن الحقيقة الغائبة عن كينونته ووجوده، إنها رحلة مضيئة عبر العدم، يقول:

الزمن الضائع والأرض التي تهجرها الطيور

والموت في الظهيرة

في النفق المسدود

تمزق الجذور

في باطن الأرض، انهيار هذه السدود

...

تراكم الحزن، اختناق الصمت في الزحام

عذابك المقيم (البياتي، 1985، صفحة 49)

يفتح البياتي القصيدة بجملة اسمية: "الزمن الضائع"، وهي جملة محذوفة الخبر، فحذف الخبر هنا يدل على القلق، على المجهول، إذ يوحي بوجود شيء مفقود، إنه وصف يحمل دلالات التشبث والتشظي: لا ماضٍ، ولا حاضر، ولا مستقبل، يصف الزمن بأنه ضائع، كإنسان يبحث عن هويته، عن حقيقته، يفتش في كل مكان، وفي كل زمان، بلا جدوى، في وطنه، في غربته، ولكن لا يجد أثراً لذاته، لا وسط الركام، ولا في رفات الزمان.

يوظف البياتي في هذا المقطع، مجموعة من المصادر (تمزق، انهيار، تراكم، اختناق، عذاب) تحمل دلالات مكثفة تعكس أزمة الإنسان الأزلية مع الوجود. والمصدر - كما هو معلوم - اسم يدل على حدث غير مقترن بزمن. كأن هذه المصادر جاءت لتؤكد ضياع الزمن، وضياح الحقيقة عند البياتي، وتعميق شعور الاغتراب، إذ إنَّ الزمان هو الحقيقة الوحيدة التي يمتلكها الإنسان، فإذا فلت منه، دخل في دوامة من القلق، والاضطراب، والاختناق الناتج عن تراكم الآلام والأحزان.

من بين القصائد التي تصدح كذلك بالقلق الوجودي، قصيدة "الذي يأتي ولا يأتي". عنوانٌ يحمل مفارقة لغوية لافتة، يرسم علامات استفهام كثيفة، ويشكّل هالة ضبابية تحجب الدلالة. إذ إن "الذي" - كما هو معلوم - اسمٌ موصول يُستخدم مع ما بعده لتعيين ووصف ما قبله، غير أن ما قبله في هذا العنوان محذوف، فمن الذي يأتي؟

والجملة معطوفة على جملة أكثر غموضاً "ولا يأتي"، أي أنها تنفي الجملة الأولى، فتثير تساؤلاً وجودياً ملحاً: من هذا الذي يأتي و لا يأتي في الوقت نفسه؟

إن هذا العنوان يجسد ذروة القلق الوجودي عند البياتي، حيث الترقب والانتظار لشيء غامض يفتقر إلى ملامح واضحة. وهذا المجهول هو مصدر قلقه، قد يكون شخصاً، أو حقيقة غامضة، أو توجساً خفياً من الموت. يكرر البياتي عنوان القصيدة "يأتي ولا يأتي" في متنها، ليكثف دلالة التوتر النفسي والقلق الوجودي الذي يعيشه، حيث يتحول هذا "الذي يأتي ولا يأتي" إلى رمز للمجهول المنتظر، أو البطل المنفذ، الفارس المخلص، الذي طالما حلم به الشاعر ومحبوبته عائشة كذلك، كما أن فعل الرؤية يتعذر عن إبطار هذا القادم، لأن الذبابة العمياء (رمز الخراب) تقف حاجزاً بينها وبين هذا المجهول الذي قد يرمز للأمل وللحياة، يقول:

يأتي ولا يأتي، أراه مقبلاً نحوي، ولا أراه

تشير لي يده

من شاطئ الموت الذي يبدأ حيث تبدأ الحياة (البياتي، 1985، صفحة 26)

الحياة في نظر البياتي تبدأ من شاطئ الموت، حيث يتجلى "الذي يأتي ولا يأتي"، فالحياة الحقيقية عنده مقرونة بالموت، وكل ما يسبقه باطل وزائل، يرى البياتي في الموت حياة وأملًا في الخلاص من "الذبابة العمياء" التي تحجب الضياء عنه، وعن محبوبته عائشة (رمز الحياة/ الحرية)، يقول :

عائشة ماتت، ولكني أراها تذرّع الظلام

تنتظر الفارس يأتي من بلاد الشام

أيتها الذبابة العمياء

لا تحببي الضياء

عني، وعن عائشة، أيتها الشمطاء. (البياتي، 1985، صفحة 25)

إن القلق الذي يعترى البياتي نابع من الضبابية التي تحيط بموت محبوبته عائشة، التي يراها تصارع الظلام، عالقة في "الما بين"، على حافة الحياة، تنتظر النجاة، فصورتها تجسد اضطراب الشاعر الداخلي، وتعكس تناقضات الحياة التي تمرق روحه بين الأمل واليأس، بين الحياة والموت.

(5) خاتمة:

في ختام هذا البحث، نستخلص مجموعة من النتائج الرئيسية التي أظهرت العلاقة الوثيقة بين الفلسفة الوجودية وتجربة عبد الوهاب البياتي الشعرية، وكيف انعكست هذه الفلسفة في مفاهيم الحرية والاعتراب والمسؤولية والعدم في نصوصه:

- أكدت دراسة شعر عبد الوهاب البياتي أن الفلسفة الوجودية شكّلت ركيزة أساسية في تجربته الشعرية، وتجسّدت في مفاهيم الحرية، الاعتراب، المسؤولية، والعدم، واللاجدوى.
- تبين أن حضور المبادئ الوجودية في شعر البياتي انعكس على معاناته الشخصية وتجربته مع الواقع السياسي والاجتماعي، مما منح نصوصه بعداً إنسانياً عامّاً يتجاوز التجربة الفردية.
- ساعدت النزعة الوجودية البياتي على بناء رؤيته الكونية وفهم التناقضات الوجودية من منظور فلسفي وشعري في آن واحد.
- أظهرت الدراسة أيضاً أن البياتي عبّر عن هذه النزعة بلغة رمزية مكثفة، مستعيناً بأقنعة تراثية أضفت على شعره طابعاً تأويلياً عميقاً.

وفي الأخير، يمكن أن نقترح بعض التوصيات التي قد تفتح آفاقاً أوسع للبحث:

- إجراء دراسات مقارنة بين تجربة عبد الوهاب البياتي مع التجارب شعراء عرب أو غربيين تأثروا بها، للكشف عن سمات الخلق والتفرد في شعره.
- بحث أثر الفلسفة الإسلامية في تشكيل التجربة الشعرية لعبد الوهاب البياتي، واستجلاء مدى تفاعلها مع النزعة الوجودية لديه.
- تتبع امتداد الفلسفة الوجودية في الشعر العربي المعاصر، ورصد الآليات التعبيرية التي وظفها الشعراء للكشف عن صراع الإنسان مع تناقضات الحياة وإحساسه بفقدان القيمة والضياع.

(5) قائمة المصادر والمراجع:

1. بدوي عبد الرحمان. (1980). *دراسات في الفلسفة الوجودية*. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر .
2. جون بول سارتر. (1964). *الوجودية مذهب إنساني*.
3. حنفي علي محمود. (1996). *قراءة نقدية في وجودية سارتر*. طنطا: المكتبة القومية الحديثة.
4. رامي أحمد. (2000). *رباعيات عمر الخيام*. دار الشروق.
5. صليبا، جميل. (1982). *المعجم الفلسفي ج2*. بيروت، لبنان: دار الكتاب اللبناني.
6. عباس إحسان. (مارس، 1962). *الاتجاهات الفلسفية في الأدب العربي المعاصر*. مجلة الآداب، العدد 4 ، صفحة 12.
7. عبد الرحمان بدوي. (1947). *الإنسانية والوجودية في الفكر العربي*. مكتبة النهضة المصرية.
8. عبد الوهاب البياتي. (1985). *الذي يأتي ولا يأتي*. دار الشروق.
9. عبد الوهاب البياتي. (1995). *هذا هو*. (محمد رضا نصر الله، المحاور)
10. هيدغر مارتن. (2012). *الكينونة والزمان*. ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة .